هذه صفحات من هذا الكتاب المبتكر

مواعظ
الإمام ابن الجوزي

لشيخنا صالح الشامي

وقد استئذناه - حفظه الله - في

تصوير "بعض" صفحات كتبه فأذن جزاه الله خيراً

تصوير

marthad.wordpress.com

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

نشر على موقع الألوكة



بسم الله الرحمن الرحيم

معالم في التربية والدعوة

مواعظ
الإمام ابن الجوزي رحمه الله
(ت ٥٩٧ هـ)

قام بجمعها
صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ ـ هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

وَبَعْد:

يعد الإمام ابن الجوزي شيخ الوعاظ ومقدمهم في زمنه، بل إنه أحد الذين اشتهروا في هذا الميدان على مر العصور.

وكان من المستحسن أن تأخذ بعض مواعظه مكانها في هذه السلسلة «معالم في التربية والدعوة».

فهو أحد الذين نشطوا في هذا الميدان، وعالجوا أمراض الذنوب لدى الناس ووقفوا على دقائقها وما خفي منها، كما نظر في ابتعاد الناس عن آداب الإسلام وتعاليمه، وعمل قدر طاقته على توجيهها إلى الصواب.

وقد خصّ علماء الأمة وزهادها بقسط وافر من نصائحه ومواعظه، وقد يكون بعضهم أحوج من غيره إلى ذلك.

لقد اتجه بمواعظه إلى جميع شرائح المجتمع ابتداء من عامة الناس وانتهاء بالقادة والملوك. متناولاً في توجيهاته كل جوانب الحياة. كل ذلك بلغة أخّاذة تسيطر على المستمع فيلقي لها قياده لتصل به إلى الصواب ولتضعه على الطريق المستقيم.

وإني إذ أضع بين الأيدي هذه الباقة المختارة من مواعظ هذا الإمام، فإني أرجو الله سبحانه أن ينفعنا بها، وبما نسمع من علمائنا وأئمتنا، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة ربيع الآخر سنة ١٤٢٢هـ
٢٢/٦/٢٠٠١م

كتبه

صالح أحمد الشامي

ترجمة ابن الجوزي

هو أبو الفرج، عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن علي القرشي التيمي البكري.

الفقيه الحنبلي، الواعظ المفسر الحافظ، الأديب.. الملقب بـ «جمال الدين».

اشتهر بابن الجوزي نسبة إلى أحد أجداده الذي عرف: بالجوزي، بجوزة كانت في داره، لم يكن بواسط جوزة سواها.

ولد ببغداد حوالي سنة (٥١١هـ) وتوفي والده سنة (٥١٤هـ).

وفي ظلال حلقات العلم نشأ وترعرع، فحفظ القرآن وهو صغير، وكانت أول سماعاته سنة (٥١٦هـ).

كان واسع الإطلاع، عظيم العلم، له معرفة وسبق في كل باب من أبواب العلم، وفي كل فرع من فروع المعرفة.

كتب وصنف في كثير من فنون العلم، حتى وصل

عدد مؤلفاته ـ كما ذكرها عبد الحميد العلوجي في كتابه «مؤلفات ابن الجوزي» ـ إلى (٥٧٤) مؤلَفاً بما فيه المكرر.

وقد كان واعظاً مؤثراً، وينقل لنا صورة من مجالس وعظه فيقول:

«إنه لا يخلو لي مجلس من خلق لا يحصون، يبكون ويندبون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعة يتوبون، ويقطعون شعور الصبا.. وربما اتفق خمسون ومائة. ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مائة»[١].

كما يتحدث عن آثار وعظه في الناس فيقول:

«ولقد تاب على يدي في مجلس الذكر أكثر من مائتي ألف، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس.

وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل».

على أنه حين يذكر ذلك لا يذكره من باب الإعجاب بالنفس، وإنما من باب التحدث بنعم الله، وهو لا يخفي خوفه من ذلك فيقول:

«وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي.

ولقد جلست يوماً، فرأيت حولي أكثر من عشرة

(١) صيد الخاطر، ص٤٧.

آلاف، ما فيهم إلا من قد رقَّ قلبه، أو دمعت عينه.

فقلت لنفسي: كيف بك إذا نجوا وهلكتِ، فصحتُ بلسان وجدي: إلٰهي وسيدي، إن قضيت عليّ بالعذاب غداً، فلا تعلمهم بعذابي، صيانة لكرمك لا لأجلي، لئلا يقولوا: عذَّب من دلّ عليه.

إلٰهي فاحفظ حسن عقائدهم فيَّ بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك»[١].

قال سبطه أبو المظفر: «سمعت جدي يقول على المنبر: كتبت بأصبعي ألفي مجلد.. قال: وكان يختم في كل أسبوع ختمة، ولا يخرج من بيته إلا إلى الجمعة أو المجلس...».

وقد كان حريصاً على وقته، يضن به أن يذهب بغير فائدة، وقد كثرت مواعظه في هذا الصدد، فما زال ينصح الناس بالحرص على أوقاتهم وتصريفها فيما يعود عليهم بالنفع في دنياهم وآخرتهم.

ومما يبين لنا مدى هذا الحرص، أنه كان يعد للوقت الذي يزوره الناس فيه من الأعمال ما يشغل به الوقت. قال:

«ثم أعددت أعمالاً لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم

(١) صيد الخاطر، ص٢١٧.

لئلا يمضي الزمان فارغاً. فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي».

وقال سبطه بشأن وفاته:

«جلس جدي يوم السبت سابع شهر رمضان ـ يعني سنة سبع وتسعين وخمسمائة ـ تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي، وكنت حاضراً، فأنشد أبياتاً قطع عليها المجلس، ثم نزل عن المنبر فمرض خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة بين العشاءين في داره، وعمره نحو التسعين، وغسل وقت السحر، واجتمع أهل بغداد وغلقت الأسواق، وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان الجمع كثيراً جداً، وكان في شهر تموز، فأفطر بعض من حضر لشدة الحر وكثرة الزحام، ما وصل حفرته إلا وقت صلاة الجمعة والمؤذن يقول: الله أكبر، ودفن بباب حرب بالقرب من مدفن أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وترك من الأولاد ثلاثة ذكور وثلاث إناث. تغمده الله برحمته ونفع المسلمين بعلومه وجعل أجر ذلك في صحيفة أعماله».

رحم الله ابن الجوزي جزاء ما قدم للإسلام والمسلمين.. فقد كان مجدد عصره.

شهادات

ولبيان مكانة الإمام ابن الجوزي، يحسن بنا أن نذكر بعض الشهادات التي قيلت في حقه من علماء هذه الأمة، رحمهم الله جميعاً.

قال الذهبي:

«كان مبرزاً في التفسير والوعظ والتاريخ، ومتوسطاً في المذهب، وله في الحديث اطلاع تام على متونه، وأما الكلام على صحيحه وسقيمه فما له فيه ذوق المحدثين ولا نقد الحفاظ المبرزين».

وقال:

«لا يوصف ابن الجوزي بالحفظ عندنا باعتبار الصنعة، بل باعتبار كثرة اطلاعه وجمعه».

وقال بشأن وعظه:

«كان رأساً في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهاً، ويسهب ويعجب، ويطرب ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء

الوعظ والقيم بفنونه. مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة».

وقال موفق الدين ابن قدامة:

«إمام أهل عصره في الوعظ».

وقال ابن خلكان:

«كان علّامة عصره، وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ، صنّف في فنون كثيرة».

وقال ابن كثير:

«تفرد ابن الجوزي بفن الوعظ، الذي لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه، وفي طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه، ونفوذ وعظه، وغوصه على المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة بما يشاهده من الأمور الحسية، بعبارة وجيزة، سريعة الفهم والإدراك، بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة».

وقال ابن الدبيثي:

«كان من أحسن الناس كلاماً، وأتمهم نظاماً، وأعذبهم لساناً، وأجودهم بياناً، بورك في عمره وعمله، فروى الكثير، وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة، وحدّث بمصنفاته مراراً».

وقال الموفق عبد اللطيف:

«له في كل علم مشاركة، ولكنه كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفاظ، وفي التاريخ من المتوسعين، ولديه فقه كافٍ، وأما السجع الوعظي فله فيه ملكة قوية».

مكانة الوعظ عند ابن الجوزي

الوعظ ـ في رأي ابن الجوزي ـ ليس نافلة من النوافل، يمكن الاستغناء عنها، بل هو ضرورة من الضرورات، لأن المهمة الملقاة عليه لا يستطيع غيره أن يقوم بها.

فللفقيه دوره في الإصلاح.

وللمحدّث دوره في الإصلاح.

وللواعظ أيضاً دوره.. في إصلاح القلوب.

وفي هذا الصدد يقول ابن الجوزي.

«رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق، والنظر في سِيَر السلف الصالحين:

ـ لأنهم تناولوا مقصود النقل.

ـ وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها.

وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق، لأني وجدت:

ـ جمهور المحدِّثين وطلاب الحديث، همة أحدهم في الحديث العالي، وتكثير الأجزاء.

ـ وجمهور الفقهاء في علوم الجدل، وما يغلب به الخصم.

وكيف يرقُّ القلب مع هذه الأشياء؟

وقد كان جماعة من السلف، يقصدون العبد الصالح، للنظر إلى سَمْتِه وهَدْيه، لا لاْقتباس علمه.

وذلك أن ثمرة علمه: هديُه وسمته.

فافهم هذا، وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سِيَر السلف والزهاد في الدنيا، ليكون سبباً لرقة قلبك»[1].

---

(١) صيد الخاطر، ص٢٠٠، طبعة دار كاتب وكتاب.

ابن الجوزي يَصِفُ وَعْظَهُ بنَفسِه

كان ابن الجوزي يعرف المكانة التي وصل إليها في ميدان الوعظ، وامتلاكه لناصية الكلمة، ومدى تأثيره على القلوب، وهذا ما دفعه إلى وصف «كلامه ووعظه» إذْ هو الأقدر على ذلك من غيره، فيقول:

كلامي نهر يأخذ من بحر الكتاب والسنة.

يسقي قلوبكم سيحا[(١)] بلا كلف.

وقد قنع من الخراج بالدعاء.

هل في مجلسي نقص؟ فيقال: لو أنه!

أو عيب، فيقال: إلا أنه!

أو رأيتم مثله؟ فيقال: كأنه!

أبلغ بُلفظي منزل المعنى وما طال سفر العبارة.

---

(١) سيحاً: يقال: ساح الماء يسيح سيحاً، إذا جرى على وجه الأرض.

المعاني واسعة الفيافي، والألفاظ ضيقة العراص[(١)].

وما يقدر على حشو العرصة فوق ما تسع إلا مهندس لآلي[(٢)].

هذه المعاني لطاف، فأي سلكٍ فهم دقَّ انتظمت فيه، وإنما ينظم اللؤلؤ في خيط لا في حبل.

كلامي ثوب، فُصِّل على قدر أسماعكم، فهو لا يصلح إلا لكم.

لا تنكروا مدحي لأهل بغداد، فهم هم.

ألهذا البلد بدل؟

إذا مرضت الأفهام السليمة من وباء طعام العبارات الركيكة، عمل لفظي في شفائها، ولا رقى الهند.

كَلِمٌ، تداوي كل كَلْم[(٣)].

جـواهـر كـلـهـا يـتـيـم
تـوجـد مـفـقـودة الـمـثـال[(٤)]

---

(١) العِراص: جمع عَرْصَة، كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء.
(٢) لآلي: اللآلي: اللؤلؤ.
(٣) كلْم: الكلم: الجرح.
(٤) المدهش، ص٥١٨.

محاور الوعظ عند ابن الجوزي

إذا كانت مهمة الطبيب معالجة الأمراض ووصف الأدوية التي توصل إلى البرء وتمام الصحة، فإن مهمة العالم في الأمة هي معالجة الانحراف عن صراط الله تعالى، وبيان أخطار ذلك، والعمل على الأخذ بالأيدي على طريق الاستقامة.

ومن هنا كان معظم محاور الوعظ مشتركة عند العلماء، لكن طبيعة المجتمع التي قد تختلف من مكان إلى آخر، وتنوع الانحرافات، تجعل العالم يصرف اهتمامه لمعالجة الأخطار الأشد، مراعياً في ذلك سلم الأولويات.

وعندما نقف أمام نماذج متعددة من مواعظ الإمام ابن الجوزي تبرز لنا محاور كثيرة، لعل من أهمها:

١ ـ التزام الكتاب والسنة:

الدعوة إلى التزام الكتاب والسنة، هي المهمة الأولى التي ينبغي أن يضعها كل مصلح نصب عينيه،

وابن الجوزي واحد من هؤلاء العلماء الذين عملوا كل جهدهم في دعوة الناس إلى هذا الأمر.

«فالجادة السليمة والطريق القويمة، إنما هي الاقتداء بصاحب الشرع».

وهو يتأسف لما آل إليه أمر أكثر الناس من البعد عن ذلك فيقول:

«من عرف الشرع كما ينبغي، وعلم حالة الرسول ﷺ وأحوال الصحابة وأكابر العلماء، علم أن أكثر الناس على غير الجادة».

فالمقياس الذي تعرف به الاستقامة، كما يعرف به الانحراف، هو الكتاب والسنة ولذا فهو يكرر الدعوة إلى الاقتداء بالرسول ﷺ واتباع سنته.

ولهذا فإن ابن الجوزي، ومن أجل هذه الغاية، يضبط مواعظه بهذا الإطار ويقول كما رأينا في بيان خطة وعظه: «كلامي نهر يأخذ من بحر الكتاب والسنة».

٢ ـ الاهتمام بالحياة الآخرة:

شغلت قضية التذكير بأمر الآخرة حيزاً كبيراً من مواعظ ابن الجوزي، ولعل دافعه إلى ذلك ما رآه في مجتمعه من الانكباب على أمور الدنيا، ونسيان

الآخرة، خلافاً لما دعت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

ولذا فهو كثير التذكير بالموت وما بعد الموت، ليوقظ بذلك الغافلين ويذكر الناسين، ويحذر المذنبين.

٣ ـ بيان قيمة الوقت:

وهذه قضية ذات ارتباط كبير بالتي قبلها، فحياة الإنسان هي رأس ماله، وهي الأيام التي تمر به، أو يمر بها، فلا بد في سبيل النجاة من استغلالها في الخير الذي يكون سبب السعادة في الآخرة. وكل لحظة تُقضىٰ في غير هذا السبيل فهي خسارة وضياع.

فالزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة، ففي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (من قال سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له بها نخلة في الجنة) فكيف تسمح للإنسان نفسه أن يفرط بهذا الربح العظيم..

بهذا الأسلوب وبغيره يبين قيمة الزمن، ويدعو إلى الحفاظ عليه، وما دعوته إلى العزلة في كثير من مواعظه إلا بغية الضنِّ بالوقت أن يضيع فيما لا يعود على الإنسان نفعه في آخرته.

٤ ـ انحراف العلماء والزهاد:

كثيرة هي المواعظ التي عالج فيها الإمام هذا الموضوع. فانحراف العلماء في غالبه ناشئ عن حب الدنيا، وعدم تطبيق معطيات العلم، وإنما يكون العلم للعمل، فإذا لم يكن كذلك كان حجة على الإنسان.

وأما الزهاد فسبب انحرافهم في الغالب، هو الجهل، فلا بد لمن أراد سلوك طريق الزهد من العيش في ظلال العلم أولاً.

وهو ينصح العلماء بكسب المال من طرقه المشروعة.. وذلك للاستغناء عن الناس، ويضرب الأمثلة بالصحابة في سعيهم لكسب ما يقوم بسداد حاجاتهم.

٥ ـ معالجة الواقع:

كثيراً ما يبدأ ابن الجوزي موعظته، أو خاطرته، أو حديثه، بقوله: «رأيتُ» أو «نظرتُ» أو «تأملتُ».

ثم يعرض الواقعة التي رآها، أو الحادثة التي دعته إلى التأمل للبحث عن أسبابها.. وهو بهذا يشخِّص المرض. ليخلص بعد ذلك إلى موعظته التي تحمل الدواء الناجع.

وهذه النظرات والتأملات تصف لنا الواقع الذي كان يعيشه ابن الجوزي، وهي ذات قيمة كبيرة لمن أراد دراسةَ تلك الفترة من الزمن، وتصوّرَ الواقع الاجتماعي يومئذٍ.

وهي من الكثرة بحيث لو جُمِعت، لكانت مرجعاً لدارس الأمراض الاجتماعية يومئذٍ.

والذي يهمنا لفت النظر إليه أن ابن الجوزي لم تكن مواعظه لمجرد ترقيق القلوب وتليينها، ولكن لمعالجة أمراض مستقرة، أو نزلات وافدة، وهي مقدمة في سلم الأولويات على ذكر الرقائق..

وهكذا كان ابن الجوزي واعياً لمهمة العالِم في مجتمعه، ودوره العظيم في قيادته إلى الطريق السوي.

وهذا ما يفسر لنا نفاذه إلى القلوب، والأخذ بمجامعها، الأمر الذي جعل مجالس وعظه مجالس توبة ورجوع إلى الله تعالى، وما ذلك إلا لأنه كان قادراً على وضع يده على الألم في جسم الأمة..

٦ ـ ذم الدنيا:

يفصِّل ابن الجوزي الأمر في ذم الدنيا،

فهي لا تذم لذاتها، فهي قرار للخلق، تخرج منها

أقواتهم، ويدفن فيها أمواتهم وكل ما عليها فإنما هو لمصلحة الآدمي، وفيه حفظ لبقائه.

وهي مكان لطاعة الله تعالى ومعرفته.

وما كان كذلك يمدح ولا يذم

وإنما الذم لأفعال الجاهل أو العاصي في الدنيا.

٧ ـ العناية بالأموال:

على الرغم من التحذير المتكرر من الانغماس في الدنيا، والذي يشغل حيزاً كبيراً من مواعظ ابن الجوزي، فإنه يدعو إلى حيازة الأموال والعمل على تحصيلها بالقدر الذي يغني الإنسان عن احتياج الآخرين.

ويخص بدعوته هذه العلماء والزهاد.

أما العلماء فهم بحاجة إلى حيازة المال ومن طريق العمل.. حتى لا يكونوا في مواقف الذل أمام السلطان.

وأما الزهاد، فهم بحاجة إلى ما يغنيهم عن حاجة الغير حتى لا يضطروا إلى مواقف الذل عندما يعطف عليهم الناس.

واسمع إلى قوله في ذلك: «اجتهاد العاقل فيما

يصلحه لازم بمقتضى العقل والشرع، فمن ذلك حفظ ماله..».

وقال: «ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس..».

وقال: «فعليك يا طالب العلم بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس، فإنه يجمع لك دينك..».

على أن هذه العناية لا ينبغي أن تجاوز الحد، بحيث يصبح جمع المال هو الغاية والهدف،

وإذن فالعناية بالمال من غاياتها الحفاظ على كرامة المسلم، وبخاصة العلماء الذين هم في موضع العطاء في جوانب المعاني والأخلاق والتعليم، فلا يصح لهم أن يكونوا في جانب الأخذ في الطرف الآخر.

٨ ـ العناية بالقلب:

وللجانب الروحي الحظ الأوفى في مواعظه.

فالدعوة إلى التقوى والحض على التوبة، والعمل على محاسبة النفس، والتيقظ للغفلة، والبعد عن العجب، ومداومة الذكر، والشكر على الهداية، والمراقبة في الخلوات، والإخلاص في العمل، وإصلاح النيات، والتفكر، والاعتبار، وغير ذلك..

كل ذلك مما وفاه الإمام حقه، وجلّاه بعبارته الصافية وأسلوبه الرصين.

تلك هي بعض محاور الوعظ عند ابن الجوزي أكتفي بذكرها، وأترك للقارئ الكريم التعرف على المحاور الأخرى من خلال المواعظ المطروحة بين يديه.

هذه المواعظ

يُعَد ابن الجوزي من الوعاظ المشهورين في العالم الإسلامي، بل لعله أشهرهم، ومما يدل على ذلك كثرة كتبه التي ألفها في هذا الباب، والتي تعد بالعشرات، طبع بعضها وبعضها الآخر ما زال في مكتبات المخطوطات أو في عداد المفقود.

وأستطيع القول بأن ما دوَّنه ابن الجوزي في هذا الباب، إنما هو صدى لمجالسه الوعظية المشهورة.

وتعد القصة والخبر عنصراً أصيلاً في بناء هذه المواعظ، كما يعد السجع حليتها التي كانت تأخذ بالأسماع، وكان لابن الجوزي قدرة عجيبة في إظهار المعنى بالصياغة التي يرتضيها.

وكنت قد عملت على إخراج سلسلة من مواعظ أعلام هذه الأمة الخيرة، وكان لا بد لمواعظ ابن الجوزي أن تأخذ مكانها في هذا المشروع.

وكنت أتوقع سهولة العمل في إخراج هذا الموضوع

لما ذكرت من كثرة كتب المواعظ لهذا الإمام. . ولكن الأمر لم يكن كذلك.

ذلك أن سلسلة «معالم في التربية والدعوة» ليس من وسائلها عرض القصص والأخبار إلا بقدر محدود. كما أنها تعتمد التنوع في معالجة الموضوعات الاجتماعية، وتستبعد التقسيم المنطقي. .

ولهذه المعاني وغيرها لم أستطع ـ مثلاً ـ اختيار موعظة واحدة من كتاب «ذم الهوى» وهو يقع في مجلد.

واستطعت بعد جهد اختيار عدة مواعظ لا تتجاوز عدد أصابع اليد من كتاب «بستان الواعظين» وهو في مجلد أيضاً. علماً بأن عنوانه يوحي بأنه كله في مجال الموضوع محل البحث. . وكذلك كتاب «التبصرة»، وهو في مجلدين. .

وهكذا في كتب أخرى.

على أن المواعظ التي تم اختيارها، ووضعت في هذا الكتاب، خضع معظمها إلى الاختصار إن كانت طويلة، أو حذف المعنى المكرر حيث وجد ذلك. أو كانت اقتطافاً لزهرة مختارة من عدة زهرات في نبتة واحدة.

وكل ذلك مع المحافظة على لفظ المؤلف، والتركيز على المعنى الذي قصد إليه.

وأرجو أن أكون قد وفقت لما قصدت إليه.

والحمد لله رب العالمين.

مواعظ الإمام ابن الجوزي

الاقتداء بصاحب الشرع

قال أبو الفرج:

الجادة السليمة، والطريق القويمة، الاقتداءُ بصاحب الشرع، والبدار إلى الاستنان به. فهو الكامل الذي لا نقص فيه.

فإن خلقاً كثيراً انحرفوا إلى جادة الزهد، وحملوا أنفسهم فوق الجهد، فأفاقوا في أواخر العمر، والبدن قد نهك، وفاتت أمور مهمة من العلم وغيره.

وإن أقواماً انحرفوا إلى صورة العلم، فبالغوا في طلبه، فأفاقوا في أواخر قَدَم، وقد فاتهم العمل به.

فطريق المصطفى ﷺ: العلم والعمل، والتلطف بالبدن.

وقد أوصى عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له: (إن لجسدك عليك حقا[1])[2].

---

(١) رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) صيد الخاطر، ص٢٠٥، تحقيق محمد عبد الرحمٰن عوض، دار كاتب وكتاب، بيروت.

بين العادة والعبادة

قال أبو الفرج:

تأملت على أكثر الناس عباداتهم، فإذا هي عادات.

فأما أرباب اليقظة فعاداتهم عبادة حقيقية.

فإن الغافل يقول: سبحان الله، عادة.

والمتيقظ لا يزال فكره في عجائب المخلوقات، أو في عظمة الخالق، فيحركه الفكر في ذلك فيقول: سبحان الله.

فكان هذا التسبيح ثمرة الفكر، فهذا تسبيح المتيقظين.

وما تزال أفكارهم تجول، فتقع عباداتهم بالتسبيحات محققة.

وكذلك يتفكرون في قبائح ذنوب قد تقدمت، فيوجب ذلك: الفكر وقلق القلب وندم النفس، فيثمر ذلك أن يقول قائلهم: استغفر الله.

فهذا هو التسبيح والاستغفار.

فأما الغافلون فيقولون ذلك عادة.

وشتان ما بين الفريقين[١].

التعوذ بالله من الشيطان

قال أبو الفرج:

اعلموا ـ عباد الله ـ أن من استعاذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم، فقد عمل بالقرآن الحكيم.

وذلك أن الله تبارك وتعالى أمره بالاستعاذة من اللعين إبليس في آي كثيرة من القرآن.

فمن استعاذ بالملك الوهاب، من شر الشيطان الكذاب، فقد عمل بالسنة وأحكام الكتاب.

والقرآن شافع لمن عمل به[٢].

مناجاة

قال أبو الفرج:

إلٰهي.

ما أكثر المعرض عنك، والمعترض عليك، وما أقل المعترضين لك.

---

(١) صيد الخاطر، ص٣٥٢.

(٢) بستان الواعظين، ص٣٠، دار الكتاب العربي، راجعه السيد الجميلي.

يا روح القلوب، أين طلابك؟

يا نور السماوات، أين أحبابك؟

يا رب الأرباب، أين عبَّادك؟

يا مسبب الأسباب، أين قصَّادك؟

من الذي عاملك بلبه فلم يربح؟

من الذي جاءك بكربه، فلم يفرح؟

أي صدرٍ صدرَ عن بابك، ولم يشرح؟

من ذا الذي لاذ بحبلك، فاشتهى أن يبرح؟

يا معرضاً عنه، إلى من أعرضت؟

يا مشغولاً بغيره، بمن تعوضت؟[١].

مجالس الوعظ بين الأمس واليوم

قال أبو الفرج:

كان جماعة من السلف يرون تخليط القصاص، فينهون عن الحضور عندهم. وهذا على الإطلاق لا يحسن اليوم.

لأن الناس كانوا في ذلك الزمان متشاغلين بالعلم فرأوا حضور العلم صاداً لهم، واليوم كثر الإعراض

(١) المدهش، ص٤١٩، دار الجيل، بيروت.

عن العلم، فأنفع ما للعامي مجلس الوعظ، يرده عن ذنب، ويحركه إلى توبة.

وإنما الخلل في القاص، فليتق الله عزّ وجلّ[١].

عجباً لك

قال أبو الفرج:

عجباً لك!!

لا الدهر يغظك، ولا الحوادث تنذرك.

والساعات تعد عليك، والأفعال تعد منك.

وأحب أمريك إليك، أعودهما بالضرر عليك[٢].

الاعتبار بمن رحل

قال أبو الفرج:

ألا يعتبر المقيم منكم بمن رحل؟

ألا يندم من يعلم عواقب الكسل؟

آه لغافل، كلما جدَّ الموت هزل.

ولعاقل كلما صعد العمر نزل[٣].

(١) صيد الخاطر، ص١٠٠.
(٢) المدهش، ص٢٦١.
(٣) المدهش، ص٢٩١.

بين العقل والهوى

قال أبو الفرج:

يا هذا، عقلك يحثك على التوبة، وهواك يمنع، والحرب بينهما.

فلو جهزت جيش عزم، فرَّ العدو.

تنوي قيام الليل، فتنام.

وتحضر المجلس، فلا تبكي، ثم تقول ما السبب ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

عصيت بالنهار، فنمت بالليل.

أكلت الحرام، فأظلم قلبك.

فلما فتح باب الوصول للمقبولين، طردت.

ويحك! فكر القلب في المباحات يحدث له ظلمة، فكيف في تدبير الحرام؟

إذا غيّر المسك الماء، منع من التوضؤ، فكيف بالنجاسة.

متى تنتبه من رقاد الغفلة؟[١].

---

(١) المدهش، ص٣٦٥.

الإيمان الصحيح

قال أبو الفرج:

ليس المؤمن بالذي يؤدي فرائض العبادات صورة، ويتجنب المحظورات فحسب.

إنما المؤمن، هو الكامل الإيمان:

لا يختلج في قلبه اعتراض.

ولا يساكن نفسه فيما يجري وسوسه.

وكلما اشتد البلاء عليه، زاد إيمانه وقوي تسليمه.

وقد يدعو فلا يرى للإجابة أثراً.

وسرّه لا يتغير، لأنه يعلم أنه مملوك، وله مالك يتصرف بمقتضى إرادته.

فإن اختلج في قلبه اعتراض، خرج من مقام العبودية إلى مقام المناظرة، كما جرى لإبليس.

والإيمان يبين أثره عند قوة البلاء.

فقد يرى مثل يحيى بن زكريا يتسلَّط عليه فاجرٌ فيأمر بذبحه، فيُذْبح.

وكذلك كل تسلُّط من الكفار على الأنبياء والمؤمنين، وما وقع ردٌّ عنهم.

فإن هجسَ بالفكر: أن القدرة[1] تعجز عن الرد عنهم، كان ذلك كفراً.

وإنْ علمَ أنَّ القدرةَ متمكنة منَ الرَّد، وما ردَّت.

وأنَّ اللهَ قد يُجيعُ المؤمنين، ويُشبع الكفارَ.

ويعافي العصاةَ، ويُمرِض المتقين.

لم يبقَ إلا التسليمُ للمالك.

فهناك يَبِين معنى قوله: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

وهاهنا يظهر قَدْر قوةِ الإيمان، لا في ركعات.

قال الحسن البصري: استوى الناس في العافية، فإذا نزل البلاء تباينوا[2].

الطهارة الحقة

قال أبو الفرج:

يا هذا، إذا توضأتَ بغير نية، قيل للماء: ابذلْ له البَلل، لا الطهارة.

فإذا نويتَ، قيل له: طهارةَ الظاهر.

فإذا صفا قلبك، فقد حصلتْ طهارتُك حقيقة[3].

(١) أي قدرة الله تعالى.

(٢) صيد الخاطر، ص٢٤٥-٢٤٦، والمراد: تباينوا في الرضى بالقدر.

(٣) التبصرة ٢/ ٢٢١.

المقصود بالصلاة

قال أبو الفرج:

اعلم أن المقصود بالصلاة: إنما هو تعظيم المعبود.

وتعظيمه لا يكون إلا بحضور القلب في الخدمة.

وقد كان في السلف من يتغير إذا حضرت الصلاة، ويقول: أترون بين يدي من أريد أن أقف.

فإذا أردت استجلاب حضور قلبك الغائب، ففرغه من الشواغل مهما استطعت.

وقد كان أرباب التفكر من السلف، يشاهدون في كل شيء عبرة:

فيذكرون بالأذان نداء العرض.

وبطهارة البدن، تطهير القلب.

وبستر العورة، طلب ستر القبائح من عيوب الباطن.

وباستقبال القبلة صرف القلب إلى المقلِّب.

فمن لم تكن صلاته هكذا، فقلبه غافل[1].

إنما أنت بشر

قال أبو الفرج «في التبصرة»:

اترك الشرَّ ولا تأنسْ بشر

وتواضع إنما أنت بشر

(١) التبصرة ٢/ ٢٣٥.

هـذه الأجـسـام تُـرْب هـامـد
فـمـن الـجـهـل افـتـخـار وأشـر
فـعـجـيـب فَـرَحُ الـنـفـسِ إذا
شاع في الأرض ثناها وانتشر
مستشار خائن في نصحه
وأمين ناصح لم يستشر
فافعل الخير وأمِّل غِبَّه
فهو الذُّخر إذا الله حشر[1]

نعمة السلامة والإمهال

قال أبو الفرج:

اسمعوا يا معشر الأصحاء، اغتنموا نعمتي السلامة والإمهال، واحذروا خديعة المنى والآمال، فقد جربتم على النفس تبذيرها في بضاعة العمر، فانتبهوا لحفظ الباقي ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥].

أيام العمر معدودة، وسيفنى العَدَد، وطريق صعبة على قلة العُدَد.

أتراك تظن أنك تبقى إلى الأبد؟

أما يعتبر بالوالد الولد؟

---

(١) التبصرة ١/ ١٨٤.

أفلا ينتبه من رقدته من رقد؟![1].

وقوف على أطلال سِيَرِ السلف

قال أبو الفرج:

يا منازل الأحباب أين ساكنوك؟

يا بقاع الإخلاص أين قاطنوك؟

يا مواطن الأبرار أين عامروك؟

يا مواضع التهجد أين زائروك؟

خلت والله الديار، وباد القوم.

وارتحل أرباب السهر وبقي أهل النوم.

واستبدل الزمان أكل الشهوات بالصوم.

كفى حزناً بالواله الصب أن يرى
منازل من يهوى معطلة قفرا[2]

الطبع يسرق

قال أبو الفرج:

ما رأيت أكثر أذىً للمؤمن من مخالطة من لا يصلح.

---

(١) المواعظ والمجالس، ص١٥٤، تحقيق: محمد إبراهيم سنبل، دار الصحابة للتراث بطنطا.

(٢) اليواقيت الجوزية في المواعظ النبوية، ص٢٩، تحقيق: السيد بن عبد المقصود، مؤسسة الكتب الثقافية.

المُحْتَوىٰ